المستشرق الروسي بارتولد ودوره في دراسة تأريخ جمهوريات آسيا الوسطى

محمد عبد علي حسين القزاز
جامعة الكوفة/ مركز دراسات الكوفة

الملخص

المستشرق الروسي بارتولد مؤسس مدرسة الاستشراق السوفييتية،وريثة مدرسة الاستشراق الإمبراطورية الروسية.

كان "بارتولد" "Bartold" أستاذاً في جامعة سانت بطرس وقف حياته على التدريس والبحث المقرونين بالدراسات الميدانية والرحلات الطويلة إلى المواقع . وتتناول أبحاثه الدراسات الشاملة للتاريخ الثقافي والاجتماعي والدراسات المتخصصة في التاريخ ، وتستند أبحاثه إلى إحاطة واسعة بلغات كثيرة مثل اللغتين اللاتينية واليونانية ولغات أوربة الغربية الرئيسة ، ومعرفة جيدة باللغات العربية والفارسية والتركية والتترية.

عنوان البحث"المستشرق الروسي بارتولد ودوره في دراسة تأريخ جمهوريات آسيا الوسطى" .

من خلال هذا البحث ندرس شخصية " بارتولد " أحد مؤسسي مدرسة الإستشراق السوفييتية . يتكون البحث من مبحثين :-

المبحث الأول:" نبذة مختصرة عن سيرة المستشرق الروسي بارتولد "

نستعرض فيه السيرة الذاتية لهذا المستشرق وظروف نشأته ومراحل تطور الروح الأستشراقية لديه.

المبحث الثاني:" دور الاستشراق الروسي والسوفييتي في سياسة طمس الشخصية الثقافية لعرب تركستان ". حيث نتطرق فيه إلى الدور الاستشراقي السوفيتي ودور ذلك المستشرق في تلك الفترة.كمايشمل البحث مقدمة وخاتمة.

عالج " بارتولد ""Bartold"أبحاثاً في تأريخ أيران وبلاد ما وراء القفقاس والأقطار العربية وتاريخ الشعوب التركية والمغولية. وذاعت شهرته في العقد الثاني من القرن العشرين في روسيا وخارجها بوصفه أكبر عالم يحيط بتاريخ الشرق في العصور الوسطى. وإلى جانب ما تقدم فإن مؤلف بارتولد "Bartold" الأساسي هو كتاب «تركستان في فترة الغزو المغولي» الذي أردفه بكتابي «تاريخ تركستان» وتاريخ «الثقافة بتركستان» ومجموعة كتيّبات مخصصة لتاريخ الطاجيك والقرغيز والتركمان.

نشر " بارتولد" "Bartold" في مدة اثنين وأربعين عاماً من نشاطه العلمي ما يزيد على أربعمائة أثر علمي بين بحث ومقالة ونقد وتعليق، وأسهم بنصيب وافر في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية التي أمدّها بمئتين وأربع وسبعين مقالة جمعت كلها في مجموعة واحدة من تسعة مجلدات صدرت باللغة الروسية ،تُرجِمَ بعضها الى العربية .

Absract

The Bartold Russian orientalist founder of the Soviet school of Orientalism, heir School Orientalism of the Russian Empire

Bartold was a professor at the University of St Peter to stop his life on teaching and research Almkaronin the field studies and long trips to the sites. His research deals with comprehensive studies of the social and cultural history and specialized studies in history, and his research is based on extensive briefing in many languages such as Latin and Greek languages and languages of Western Europe major, and a good knowledge of Arabic, Persian and Turkish and Tatar.

Title Search, "" the Bartold Russian orientalist and its role in the study of the history of the Central Asian republics. "

Through this research study personal "Bartold" one of the founders of the Soviet School of Oriental Studies.
The research consists of two sections: -
Its inception
The first topic: "Brief biography of the Bartold Russian orientalist"
We review the biography of this orientalist and the circumstances of its inception, and the stages of the evolution of the soul has Orientalist.
The second topic: "The role of the Soviet and Russian Orientalism in personal obliterate cultural policy to the Arabs of East Turkistan." Where we address it to the role of the Soviet Orientalist Orientalist and its role in that period. The research also includes an introduction and a conclusion.
Bartold addressed the research in the history of Iran and the country beyond the Caucasus and the Arab countries and history the Mongol and Turkic peoples. And publicized his fame in the second decade of the twentieth century in Russia and abroad as the largest world surrounds on the East in the Middle Ages. In addition to the above primary the Bartold author of a book «Turkistan in the period of the Mongol invasion» which Erdfh with my book «Turkistan history» and «Turkistan culture» and booklets group dedicated to the history of Tajiks, Kyrgyz and Turkmen.
Published Bartold in a forty-two years of his scientific research over four hundred scientific between research and essay and criticism and commentary and contributed share benefit in the first edition of the Encyclopedia of the Islamic-standing, two hundred and four and seventy articles collected all in one set of nine volumes published in the Russian language, some of them translated into Arabic.

المقدمة

المستشرقون الروس ومدرسة الاستشراق الروسي واحدة من تلك المدارس الاستشراقية العالمية التي أولت اهتماما كبيراً بدراسة التراث العربي والإسلامي.حاول الكثير من المستشرقون الروس قراءة الإسلام وتفسير تاريخه وتحليل مدارسه الاجتهادية،مستندين إلى الموضوعية أحياناً والتحامل أحياناً أخرى.

لعبت الترجمة من العربية إلى الروسية دوراً فعالاً في نشر الثقافة العربية الإسلامية في روسيا وانعكس ذلك بشكل خاص في مجال الأدب والشعر وفي الفلسفة والعلوم الأخرى.
في هذا البحث نسلط الضوء على جوانب من مسيرة التواصل الثقافي بين العرب وروسيا من خلال أباز دور المستشرق بارتولد في الأستشراق الروسي وأتساع أفقه.

كانت الدراسات السوفيتية حول الدين الإسلامي غالبا ما تأخذ طابعا معاديا للإسلام.وقد تزعم هذه الحملات على الخصوص بعض أساتذة وخريجي أكاديمية الأورثوذوكس في مدينة "قازان".

يجب الاعتراف أن كبار علماء روسيا لم يشاركوا أبدا في الحملات المعادية للإسلام ولم يسخروا أقلامهم لشتم الشعوب الإسلامية ومقدساتها، بل كانت أصواتهم ترتفع من حين لآخر لشجب كتابات المستشرقين المبشرين.إن من مميزات الاستشراق الروسي أنه كان في غالب الأحيان ينطلق من دراسة المجتمعات الإسلامية في روسيا نفسها لأن الشرق الإسلامي كان وما زال موجودا بداخل الدولة الروسية.وهذا شيء لم يكن متوفرا عند المستشرقين في أوروبا الغربية وأمريكا الذين كان عليهم قطع المسافات الطوال للوصول إلى الشرق الإسلامي.

المبحث الأول:" نبذة مختصرة عن سيرة المستشرق الروسي بارتولد"

ولد بارتولد "Vasily Vladimirovich Bartold" بمدينة سانت بطرسبرغ يوم ١٨٦٩/١١/٣م – ١٩ / ١٠/ ١٩٣٠م،في أسرة قدمت من المانيا للاستيطان في الإمبراطورية الروسية . وأمه كانت حفيدة لرئيس الكنيسة اللوثرية وسليلة لتلك الأسرة التي قدمت من هامبورغ إلى روسيا للاستيطان.كان والد " بارتولد " من العاملين في بورصة سانت بطرسبرغ ، ويتمتع بحالة مالية جيدة سمحت لأبنه منذ نعومة أظفاره بتحصيل دراسي جيد، شمل اللغات الكلاسيكية القديمة ومبادئ اللغات الأوروبية الحديثة.وبعد استيلاء " البلاشفة "Bolsheviks" على السلطة ١٩١٧م في الإمبراطورية الروسية آثرت أسرته البقاء في روسيا وعدم الهجرة منها كما فعلت العديد من الأسر الأرستقراطية والثرية والمثقفة في روسيا آنذاك[١].

اهتمم "بارتولد""Bartold" منذ الصبا، بتعلم اللغات الحية والتاريخ،مثل اللغتين اللاتينية واليونانية ولغات أوربا الغربية الرئيسة، ومعرفة جيدة باللغات العربية والفارسية والتركية والتترية.وما أن تخرج من ثانوية سانت بطرسبرغ عام ١٨٨٧م،حتى اختار لنفسه دراسة تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط،والتحق من أجل هذا الهدف بكلية اللغات بجامعة سانت بطرسبرغ قسم اللغات العربية والفارسية والتركية والتترية .أخذ "بارتولد" منذ البداية يتعمق في دراسة هذه اللغات، إلى جانب تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط،وهي المواد التي كانت تشغل المركز الثالث من حيث الأهمية في الكلية آنذاك. تابع "بارتولد" دراسته تحت إشراف العالم الروسي الفرنسي الأصل البروفيسور والمستعرب "رامانوفيتش روزين " " Ramanovic the Rosen " (١٨٤٩م–١٩٠٨م)،الذي كان يعتبر أحد أعمدة مدرسة الإستشراق في الإمبراطورية الروسية،وصاحب المبادرة لدعوة المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين الذي انعقد في سانت بطرسبرغ عام ١٨٧٦م،وهو الذي كان يشجع تلاميذه على نشر أبحاثهم باللغة الروسية مفنداً الرأي السائد في أوروبا آنذاك، والقائل أن الكتب التي تنشر باللغة الروسية لا تجد من يقرأها [٢] .

برز " بارتولد " ""Bartold" كواحد من أبرز المتخصصين في تاريخ وشؤون إيران والقوقاز، والمناطق العربية والتركية،وعلى الأخص تاريخ تركستان،وحرص من أجل ذلك على إقامة صلات قوية مع المتخصصين في الشؤون التركستانية،وساهم في أعمال نادي هواة التنقيب عن الآثار الروس في تركستان،خلال الأعوام الممتدة من ١٨٩٥م وحتى عام ١٩١٧م،ونشر في صحافة تركستان الروسية "تركستانسكيخ فيدوموستياخ"، و"أكراييني"، و"روسكوم تركستاني" وغيرها،اختصت أغلبها بدراسة واقع جمهوريات آسيا الوسطى وبخاصة جمهورية تركمانستان [٣].

حصل عام ١٨٨٩م على الميدالية الفضية للكلية عن بحث تناول فيه موضوع "المسيحيون في تركستان"! وتم نشره في نشرة ملاحظات القسم الشرقي لجمعية الآثار الروسية" عام ١٨٩٣م تحت عنوان "المسيحيون في تركستان قبل المرحلة المغولية". بعد تخرجه من الجامعة عام ١٨٩١م،وبتوصية من البروفسور" روزين" " Ramanovic the Rosen" . زار "بارتولد "خلال أعوام (١٨٩١م –١٨٩٢م)،وعلى نفقته الخاصة كلاً من: "فنلندا، وألمانيا، وسويسرا،وشمال إيطاليا، والنمسا، وهنغاريا،وكراكوف" التي كانت آنذاك ضمن أراضي الدولة النمساوية الهنغارية،واستمع خلالها في جامعة "غال" إلى محاضرات المتخصص في الشؤون الإسلامية "أفغوست ميوللير" ' Avgust Meulller "(١٨٤٨م –١٨٩٢م)، وفي جامعة" ستراسبورغ " إلى محاضرات المستعرب الشهير" تيودور نيولديك "Theodore Newoldek" (١٨٣٦م – ١٩٣٠م) الذي كان عضواً مراسلاً بأكاديمية العلوم الروسية منذ عام ١٨٨٥م وعضو شرف منذ عام ١٩٢٧م،وبعد عودته إلى جامعة "سانت بطرسبرغ "عام ١٨٩٢م شرع "بارتولد" بالتحضير للحصول على لقب بروفيسور في قسم تاريخ الشرق، وحصل على الماجستير

عام ١٨٩٣م،وعلى لقب أستاذ مساعد عام ١٨٩٦م، وعين محاضراً في جامعة سانت بطرسبرغ .سجل نشاطه في مجال النشر والبحث العلمي زيادة ملحوظة خلال العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين،فصدر له في سانت بطرسبرغ كتب : "أولوغ بيك وعصره"،و"العالم الإسلامي" و"الثقافة الإسلامية" عام ١٩١٨م،و"تاريخ تركستان" عام ١٩٢٢م الذي ضم محاضراته التي ألقاها في جامعة آسيا الوسطى الحكومية في طشقند عام ١٩٢٠م،و"تاريخ الحياة الثقافية في تركستان" عام ١٩٢٧م ، ومقالات في تاريخ الطاجيك عام ١٩٢٥م ، والقرغيز عام ١٩٢٧م ، وأعيد إصدارها عام ١٩٤٣م ، والتركمان عام ١٩٢٩م،اعتبرت كلها المدخل والأساس الجديد في دراسة تاريخ تركستان الذي أخذت به ليس العلوم السوفييتية وحسب، بل والسلطة السوفييتية لتقسيم المنطقة على أساس عرقي وقومي (٤).

درس لدى الأساتذة المتخصصين في الشؤون التركية أمثال:" ميليورانسكي "" " Miliranski" (١٨٦٨م-١٩٠٦م)"، ورادلوف" RadlOf" (١٨٣٧م – ١٩١٨م). صدرت في العديد من الدول الأجنبية معظم مؤلفاتهِ،وترجم معظمها إلى اللغات الأجنبية وخاصة التركية، والفارسية،والعربية. بعد وفاة زوجته " ماريا أليكسييفنا جوكوفسكايا" ١٩٢٨م "marje"،وهي سليلة عائلة ضمت عدداً كبيراً من المستشرقين في روسيا، ومن بينهم شقيقها الأكبر المتخصص في الشؤون الإيرانية البروفيسور" فالنتين أليكسييفيتش جوكوفسكي" Valentin Alexsjevic,Zhukovsky' " (١٨٥٨م-١٩١٨م).وزوج شقيقتها" اليكساندرا"، "Alexandra" ""الأكاديمي نيكولاي ياكوفليفيتش مار"Nikolai Jakovlavi,Mar" (١٨٦٤م -١٩٣٤م)، وابنهما البروفيسور" يوري نيكولاييفيتش مار" Yuri Nikolayavi Mar " (١٨٩٢م-١٩٣٥م)،وتأثر بارتولد كثيراً لفقدانها.ولم يعش طويلاً بعدها، حيث وافته المنية في مستشفى" لينغراد سانت بطرسبرغ" في ١٩٣٠/٨/١٩م ،وتم دفنه مع زوجته في قبر واحد،عن واحد وستين عاماً كرس معظمها للاستشراق الروسي والسوفييتي،وقدم خدمات كبيرة لتوطيد أقدام الإمبراطورية الروسية أولاً،ومن ثم الإمبراطورية السوفييتية،في المنطقة التي عرفت أيام عزها باسم ما وراء النهر ،ومن ثم باسم تركستان، ومن ثم تركستان الروسية،ومن ثم آسيا الوسطى وقازاقستان السوفييتية،وأخيراً آسيا المركزية الذي حصلت عليه بعد استقلال جمهورياتها الخمس(أوزبكستان، وقازاقستان، وتركمانستان، وقرغيزيا، وطاجيكستان) في مطلع تسعينات القرن العشرين (٥) .

ركز بارتولد في كتاباته على الأوضاع الإثنوغرافية في تركستان الخاضعة للسيطرة الروسية،وخاصة على العنصر العربي المستقر فيها وذكر في كتابه "العالم الإسلامي" الذي نشر عام ١٩١٨م، وأشار إلى أن العرب احتفظوا بقوة بشخصيتهم القومية، وتركيبتهم وتسمياتهم القبلية البدوية في تركستان ، ولو أنهم فقدوا لغتهم العربية. وأشار إلى أنه في البلدان المفتوحة استوطن البدو ليس كقبائل متفرقة، بل في مجموعات قبلية كبيرة (٦).

لابد من الإشارة هنا ، إن الاستشراق الروسي بدأ بالتوجه نحو دراسة لغات الشعوب الإسلامية العربية ، والفارسية، والتركية ، منذ عام ١٧١٦م، ورافقه إيفاد عدد من الطلاب الروس للدراسة في أصفهان عام ١٧١٧م،رغبة من القيصر الروسي آنذاك بإعداد كوادر روسية خالصة لخدمة مصالح الإمبراطورية الآخذة في التوسع، بديلاً عن العناصر الأجنبية الوافدة للاستيطان في روسيا (٧) .

المبحث الثاني: دور الاستشراق الروسي والسوفييتي في سياسة طمس الشخصية الثقافية لعرب تركستان

بدأ هذا الدور مع الاهتمام بدراسة لغات الشعوب الإسلامية العربية والفارسية والتركية عام ١٧١٦م في روسيا،وإيفاد القيصر الروسي في عام ١٧١٧م عدداً من الطلاب الروس إلى أصفهان للدراسة،رغبة منه في إعداد كوادر روسية خالصة لخدمة مصالح الإمبراطورية الروسية،لأن معظم مؤسسي مدرسة الاستشراق الروسية كانوا من الأوربيين اليهود الذين جاءوا مستوطنين إلى الإمبراطورية الروسية آنذاك " Ignaij Julianovic" Krackovskij . وهو سبب الربط بين تدريس اللغتين العربية والعبرية ، وتاريخ أديان وقوانين وعلوم وفنون وعادات العبرانيين والعرب في جامعة موسكو منذ عام ١٨١١م،مما أدى إلى خلق جيل من المستعربين اليهود الروس الذين التحقوا بالدراسة أصلاً لتعلم اللغة العبرية، وكانت لهم اليد الطولى لاحقاً في توجيه حركة الاستعراب ليس في روسيا وحسب، بل وفي مستعمراتها الإسلامية أيضا ً.

تقسم المراجع الروسية والسوفييتية تاريخ العرب الذين سكنوا في آسيا المركزية إلى مرحلتين : المرحلة الأولى : وهي التي رافقت وصول العرب فاتحين إلى ما وراء النهر خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين، واستقرارهم في المنطقة،وتنتهي هذه المرحلة مع بداية الحملات العسكرية التي قام بها الأمير" تيمورلانك" "Timorlank في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي.وعاش خلالها العرب في ما وراء النهر داخل مناطق جديدة مجهولة بالنسبة لهم، وقاموا خلالها بإيجاد مكانة اجتماعية لهم داخل التركيبة الاقتصادية والسكانية والثقافية للمجتمع المحلي،مستفيدين من العامل الديني الهام،والدور السياسي الكبير الذي لعبه الدين الإسلامي في حياة المنطقة بعد انتشاره الواسع فيها خلال فترة قصيرة،وحافظ خلالها العرب على ترابطهم وأنسابهم ولغتهم وثقافتهم،وكان لهم مركزاً دينياً خاصاً منحهم الكثير من الميزات الاجتماعية والعلمية والسياسية. المرحلة الثانية:وبدأت منذ انطلاقة حملات الأمير تيمورلانك، ونتج عنها تحطيم الأنساق التقليدية السياسية والاقتصاد في المنطقة بأسرها،وأدت تلك التغييرات إلى إعادة توزيع الأدوار السياسية والاقتصادية بشكل دفع المنطقة نحو تشكيل أرضية جديدة غيرت واقع التسميات التي كانت معروفة آنذاك.وأحلت مكانها تسميات جديدة، ارتبطت في الكثير من الحالات بالمواقف التي اتخذتها الطبقة العليا المتنفذة في المجتمع وحددت من خلالها العلاقات القبلية والعشائرية،ونفوذ كل منها بين جميع القبائل المسلمة التي سكنت المنطقة آنذاك.واستمرت على تلك الشاكلة حتى مجيء الروس إلى المنطقة،وشروعهم بتغيير ملامحها السكانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية،وفرض ثقافة غريبة عليها [٨] . مما نتج عنه تشويه وطمس مقصود لتاريخ المنطقة قام به المستشرقون الروس خدمة للأهداف التوسعية للإمبراطورية الروسية . وكان أول المتضررين منه طبعاً عرب آسيا المركزية الذين تمكنت الإدارة الروسية من القضاء على شخصيتهم الاجتماعية، واللغوية، والدينية ، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية تدريجياً، تنفيذاً للسياسة الاستعمارية التي رسمتها لنفسها منذ بداية القرن الثامن عشر،لأنها كانت تعتبرهم من أكثر العوامل المؤثرة على عملية استمرار الدين الإسلامي الذي وحد سكان تركستان بكل أعراقهم وقومياتهم وأجناسهم،واعتبرتهم العنصر المنافس الوحيد القادر على تحفيز النفوس لمقاومة الاحتلال الأجنبي الغريب كل الغرابة عن المنطقة لما يتمتعون به من نفوذ ديني وروحي[٩]. كان الدور الكبير في طمس معالم التاريخ العريق للمنطقة وتشويهه،للاستشراق الروسي كما سبق وأشرت،الاستشراق الذي بدأ بالتوجه نحو دراسة لغات الشعوب الإسلامية العربية،والفارسية،والتركية، منذ عام ١٧١٦م،ورافقه إيفاد عدد من الطلاب الروس للدراسة في أصفهان عام ١٧١٧م،رغبة من القيصر الروسي آنذاك بإعداد كوادر روسية خالصة لخدمة مصالح الإمبراطورية الآخذة في التوسع،بديلاً عن العناصر الأجنبية الوافدة للاستيطان في روسيا. وكان أفصح مثال يوضح الدور الذي لعبه المستشرقون الروس لتحقيق أهداف الإمبراطورية الروسية في القرن الثامن عشر،"غيورغ ياكوب كير"" Georg

Jakob Kerr" ماجستير جامعة لايبزغ،والخبير باللغات السامية والإسلامية ، وأول مستعرب في أوروبا قرأ الخط الكوفي،في مشروعه الذي قدمه للحكومة الإمبراطورية الروسية عام ١٧٣٣م.وأوردها بارتولد في مقالته "الاستشراق في روسيا في القرن الثامن عشر"،ويتلخص مضمونها بالتالي:خدمة الإدارة الحكومية الروسية، وتأمين حاجاتها من المترجمين في اللغات الشرقية، للترجمة وإدارة المناطق التابعة لروسيا، وللعلاقات مع الدول الشرقية ، وخدمة توسع الإمبراطورية الروسية،والاستيلاء على تركيا وآسيا الوسطى، ونشر الدين المسيحي بين المسلمين.ولهذا الغرض يجب دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية والسريانية والسومرية والإثيوبية واليونانية والصينية والمنشورية والمغولية وغيرها من اللغات الشرقية،وهو ما يوضح أبعاد ومرامي سياسية وإيديولوجية واقتصادية وجغرافية توسعية بعيدة المدى (١٠) .

من نظرة متعمقة في ماهية أولئك المستشرقين الذين خدموا الإمبراطورية الروسية طيلة القرون الثلاثة الماضية ، نجد أن الأكثرية المطلقة من مؤسسي مدرسة الاستشراق الروسية كانت من الأوربيين اليهود الذين قدموا للاستيطان في الإمبراطورية الروسية،وهم أنفسهم ربطوا بين تدريس اللغتين العربية والعبرية، وتاريخ أديان وقوانين وعلوم وفنون وعادات العبرانيين والعرب في جامعة موسكو منذ عام١٨١١م،الأمر الذي أدى إلى نشأة جيل من المستعربين اليهود الروس الذين التحقوا بالدراسة أصلاً لتعلم اللغة العبرية، وكانت لهم اليد الطولى في توجيه حركة الاستعراب ليس في روسيا وحسب،بل وفي مستعمراتها الإسلامية، من خلال الدراسات التي قاموا بها دون سواهم،والمواقع الحساسة التي شغلوها في معاهد الاستشراق التي أسست في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الروسية،وبعدها في الإمبراطورية السوفييتية. واستفادوا من ذلك الوضع في كل الظروف والمناسبات لدعم الحلم الصهيوني بإقامة دولة إسرائيل،الأمر الذي تطلب أولاً القضاء على آخر خلافة إسلامية كانت في الدولة العثمانية، كما حدث فعلاً في مطلع القرن العشرين،ومن ثم العمل بدأب ومثابرة للقضاء على اللغة العربية أو محاربة أو تشويه تدريسها في كل مكان وجدوا فيه،وهي اللغة التي تعتبر من مقومات الرابطة التي تجمع الشعوب الإسلامية وتحافظ على نقاء الدين الإسلامي.ولم يألوا جهداً في الإساءة للعرب وتدنيس تاريخهم في كل المناسبات،ولابد أن الهدف من ذلك كان واضحاً ولا يحتاج لأي تعليق،وعاد وأكده في النصف الثاني من القرن العشرين رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق" شمعون بيريز" "Shimon Peres" عندما تباهى أمام مراسل صحيفة الفاينتشيال تايمزالبريطانية وقال:"لقد حاربنا القومية العربية لأربعين عاماً حتى قضينا عليها، ومنعنا توحد العرب،أما الآن فعلينا أن نعلم المسلمين كيف يعيدون قراءة القرآن وفهمه" (١١).تشير الكثير من الدراسات ان الهدف من وراء ذلك هو القضاء النهائي على الشخصية العربية،واللغة العربية،والثقافة العربية لتحل مكانها الشخصية العبرانية،واللغة العبرية،والثقافة العبرانية كواجهة وحيدة تمثل كل الشعوب الساميّة في المستقبل، ليصبح بعد ذلك الطريق مفتوحاً للتعرض للتراث الإسلامي العلمي تشويهاً وتحريفاً ومن يدري !؟ كما سبق وتعرضت له الديانة المسيحية من إساءة على أيدي دعاة الحركة الصهيونية العالمية،والتي أكدتها تصريحات قادة إسرائيل أكثر من مرة وأوضحت تصريحاتهم تلك الكثير من الحقائق التي عبثاً لا يراها الكثيرون من دعاة حقوق الإنسان في العالم اليوم ، ومنها ما أكده رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق "بنيامين نيتنياهو" Benjamin Netanyahu " من أن:"المسيحية الصهيونية لم تكن مجرد تيار من الأفكار ،إن مخططات عملية وضعت فعلاً من أجل عودة اليهود إلى فلسطين والمسحيين ساعدوا على تحويل الأسطورة إلى دولة يهودية"(١٢).لعل في هذا بعضاً من أسباب الحملة الشعواء التي تعرض لها عرب آسيا المركزية دون سواهم،تعرضوا لحملات طمس الشخصية الثقافية التي ميزتهم داخل المجتمع الروسي في تركستان

الروسية،وزادت حدتها خلال العهد السوفييتي ١٩٢٠م،وتمثلت بالحملة الشعواء التي تركزت واشتدت خلال الفترة الممتدة ما بين الثلاثينات والستينات من القرن العشرين.وهي الفترة التي شهدت تركيزاً على دراسة ونشر أبحاث مستفيضة عن لغة عرب آسيا الوسطى السوفييتية . تمهيداً لشطبهم نهائياً من بين الأقليات العرقية في الاتحاد السوفييتي وهو ما حدث بالفعل. والعرب وكما تعترف الموسوعة السوفييتية: "من الشعوب التي تعيش في آسيا الوسطى، ضمن مجموعات صغيرة،وخاصة في محافظتي بخارى،وسمرقند في أوزبكستان السوفييتية، بين السكان المحليين الأوزبك، والطاجيك، والتركمان،منصهرين بالتدريج فيهم [١٣] .

اختفى العرب تماماً من الإحصائيات السكانية التي جرت في الاتحاد السوفييتي بعد ذلك حيثُ نجده في السياسة السوفييتية المعلنة آنذاك، والتي تقول (بالحرف الواحد) في واحدة من الموسوعات السوفييتية:أنه "في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وفرت كل الظروف لتطور كل الشعوب والقوميات، وفي المجتمع الاشتراكي "القومية" و"اللغة الأم" يعتبران مفهومان مستقلان، لهذا في برنامج تعداد السكان لعام ١٩٢٠م اعتبرت اللغة الأم هي اللغة التي يتحدث بها أفراد الأسرة، وفي الأسر المختلطة اعتبرت لغة الوالدة اللغة الأم للأسرة. وفي إحصاء عام ١٩٢٦م،اعتبرت اللغة الأم هي اللغة التي يتحدث بها الشخص المعني بطلاقة،وفي إحصائيات عامي ١٩٣٩م و ١٩٥٩م،اعتبرت اللغة الأم هي اللغة التي يفضلها الشخص ذاته [١٤].

ضمن سياسة فرض اللغة والثقافة الروسية على أبناء المنطقة أخذت اللغة الثانية التي يتحدث بها الشخص بطلاقة بعين الاعتبار،. وخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٧٠م إلى عام ١٩٧٩م تضاعف عدد الأوزبك الذي يتكلمون اللغة الروسية بطلاقة ٥.٥ مرة،ووصلت نسبتهم في عام ١٩٧٩م إلى ٥٢.٩ % من عدد الأوزبك، بينما كانت ١٣.١ % عام ١٩٧٠م.وبلغ عدد أبناء القوميات الأخرى الذين يقطنون أوزبكستان عام ١٩٧٩، ويعتبرون اللغة الأوزبكية اللغة الأم لديهم ١٣٣.٦٨٠ نسمة، بينما كان عددهم ٧٢.٦١٨ نسمة في عام ١٩٧٠م [١٥].

واجه العرب الضغوط التي وجهت ضدهم طيلة فترة الاحتلال باختيار اللغة الأوزبكية والحياة في كنف إخوانهم الأوزبك في أوزبكستان،والطاجيكية في طاجكستان، وهكذا في بقية جمهوريات آسيا الوسطى وقازاقستان السوفييتية،هرباً من سياسة الاضطهاد الروسي والسوفييتي.وهو الخيار الصائب الذي اختاروه عن وعي وإدراك لوضعهم المأساوي الذي انحدروا إليه.وأعتقد أننا لا نحتاج هنا إلى تعليق، بل إلى إضافة أن السلطات السوفييتية كانت قد استبدلت الحرف العربي بالحرف اللاتيني أولاً في الكتابة بتركستان الروسية في١ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٨م،واستبدلته بعد ذلك بالحرف الروسي الكيريلي في ٩ كانون ثاني/يناير ١٩٤٠م ،قاطعة بذلك الصلة بين شعوب المنطقة وثقافتهم وتاريخهم المكتوب.وأرفقتها بمضاعفة حملتها الشعواء ضد الأديان،وإغلاق المساجد والكنائس،وإتلاف الكتب الدينية، ومحاربة رجال الدين،وهو ما يمكن تصوره من الحالة المرثية التي وصل إليها الناطقين بالضاد خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخ آسيا المركزية، الذين تعتبر لغتهم من أساسيات ومسببات استمرار الدين الإسلامي الحنيف فيها. وهو ما كانت تدركه السلطات السوفييتية جيداً، حيث عملت وباستمرار على إفقاد وحرمان الأقلية العربية في المناطق الإسلامية الخاضعة لسلطتها ليس ثقافتها ولغتها وحسب،بل وشخصيتها ومكانتها داخل المجتمع المحلي التي هي جزء لا يتجزأ منه أصلاً [١٦] .

تبدل الوضع بعد استقلال جمهورية أوزبكستان وبدأت تظهر أرقام واضحة عن توزع السكان حسب القومية التي يحددها المواطن لنفسه في مختلف ولايات الجمهورية دون أية ضغوط، وعادت القومية العربية إلى الظهور في الإحصائيات الرسمية المنشورة،كما هي الحال في ولاية قشقاداريا،وهو ما توضحه نتائج تعداد السكان لعام ١٩٩٥م .من خلال المراجع الروسية والسوفييتية ما يثبت أن العرب خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع

والعاشر الميلاديين، سكنوا بخارى والمناطق المحيطة بها،وسمرقند وبعض مناطق جنوب أوزبكستان،وطاجيكستان، وهم من قبائل عربية ينحدر بعضها من القرشيين،وبني هلال، وبني ثقيف،والعرب اليمانيين،والبكريين،والمضريين،وبني ربيعة،وبني تميم. جاءت من جنوب الجزيرة العربية، ومن القبائل العربية الشمالية، الذين تجمعت أكثريتها في ما وراء النهر قادمة من خراسان جنوب ما وراء النهر .رغم اتفاق أكثر المصادر على أن العرب الأوائل في ما وراء النهر، كانوا قد استقروا في المدن،واندمجوا بسرعة بالسكان المحليين،نراهم يترددون في اعتبار العرب المعاصرين في مدن آسيا المركزية من أحفاد الفاتحين العرب الأوائل. ومن ضمن هذا الاتجاه، جاءت آراء بعض الباحثين عن أنه "من غير المستبعد، أن يكون العرب المعاصرين في بخارى ولينين آبادمن سلالة أولئك العرب الأوائل الذين جاءوا إلى المنطقة خلال القرون الأولى للإسلام"[١٧] .

واجه العرب الضغوط التي وجهت ضدهم طيلة فترة السيطرة هناك باختيار اللغة الأوزبكية والحياة في كنف إخوانهم الأوزبك في أوزبكستان، والطاجيكية في طاجيكستان، وهكذا في بقية جمهوريات آسيا الوسطى وقازاقستان السوفييتية،هرباً من سياسة الاضطهاد الروسي والسوفييتي.وهو الخيار الصائب الذي اختاروه عن وعي وإدراك لوضعهم المأساوي الذي انحدروا إليه [١٨] .

أظهرت بعض الأبحاث الحديثة صورة أكثر تعقيداً .تقول أنه حتى عام ١٩٩١م لم تبقى هناك سوى أربع أسر من أصل عربي سكنت الحي الجنوبي الشرقي،حيث عاش العرب في السابق. ومعهم بقيت أسطورة تقول: أنه في القرن السابع الميلادي (أي أثناء الحملات العربية الأولى!) وصل إلى هناك سبعة من العرب القرشيين، سكنوا البادية خارج أسوار المدينة، وبدءوا بالدعوة للإسلام،وتمكنوا خلال فترة قصيرة من دعوتهم إدخال ألف شخص من السكان المحليين في الإسلام،واحتفظوا بدينهم الجديد سراً لبعض الوقت (وفي هذا دليل جاء به المستشرقون أنفسهم ويناقض أطروحاتهم بأن الإسلام نشر في المنطقة بحد السيف والإرهاب). بينما تذكر مصادر أخرى أن العرب وصلوا هناك في القرن الثامن الميلادي قادمين من خراسان،أي أنهم من العرب الأوائل [١٩].

يجدر الإشارة خلو نتائج تعداد السكان الأخيرة قبل انهيار الاتحاد السوفييتي السابق تقريباً من الإشارة للعرب بين أبناء القوميات التي تعيش في آسيا المركزية اليوم. وتذكر المراجع ستة تجمعات سكانية مستقلة لها صلة بأشكال مختلفة بالعرب،وعشرات التجمعات التي تحمل تسميات متشابهة في الأحياء والمدن والتجمعات السكانية الكبيرة.تتحدث كلها عن حقيقة انتشار العرب بكثافة في المناطق الجنوبية والشمالية والوسطى من آسيا المركزية [٢٠] .

الخاتمة

وهكذا توصل الباحث في خاتمة البحث إلى ما يلي:

١- المستشرقون الروس ومدرسة الاستشراق الروسي واحدة من تلك المدارس الاستشراقية العالمية التي أولت اهتماما كبيراً بدراسة التراث العربي والإسلامي .

٢- إن جولات" بارتولد " نفسه في الغرب للتنسيق خلال المرحلة التي شهدت أوج التوسع الاستعماري الأوروبي في العالم الإسلامي،دليل على وحدة الهدف بين الاستشراقين، ووحدة الفكر والتوجهات، حتى بعد قيام الاتحاد السوفييتي.

٣- إن الاستشراق واستمرار الاهتمام به تبقى من الأمور التي تثير كثيراً من الجدل حتى يومنا هذا. حيث لا يزال الأوروبيون حتى اليوم يستقون معلوماتهم عن الإسلام والمسلمين من كتابات المختصين في هذا المجال من الأوروبيين، وهؤلاء هم بطبيعة الحال من طبقة المستشرقين،هذا فضلاً عما يكتبه بعض الأدباء أو الفلاسفة الأوربيين .

الهوامش

١- لمحة شخصية: ٤٠ .

٢- ذكرى الأكاديمي روزين : ٦٧ .

٣- من تاريخ الاستشراق الروسي والتنقيب عن الآثار في تركستان : ٤٤.

٤- مقالة في تاريخ الاستعراب الروسي : ٢٢٤-٢٢٥.

٥- تاريخ الحياة الثقافية في تركستان : ٦٩.

٦- المؤلفات ج٦: ٢٣٠.

٧- المؤلفات ج ٩: ٢٩.

٨- في ذكرى فاسيلي فاسيلفج بارتولد : العدد ١٩٧.

٩- مقالة في تاريخ الاستعراب الروسي :٨٤ .

١٠-"معلومات عن منطقة حجينت"، مذكرات تاريخ الجمعية الجغرافية الروسية : ٣٩.

١١- من تاريخ الاستشراق الروسي والتنقيب عن الآثار في تركستان : ٨٧.

١٢- الأصول : ٩٤.

١٣- إحياء تراث أوزبكستان بين الأمس واليوم :العدد٣١٨.

١٤- آفاق التعاون العربي الأوزبكستاني :٥٦-٥٩ .

١٥- علوم اللغة العربية ومخطوطاتها في أوزبكستان : ٢٥٧-٢٦٨.

١٦- عرب آسيا المركزية : آثار وملامح : ص١٧٣-١٩٦.

١٧- مقالات في التاريخ العرقي للمناطق الجنوبية من طاجيكستان وأوزبكستان : ص٢٥٠

١٨- أوزبكستان السوفييتية الاشتراكية : ص٦٧ .

١٩- التطور الحديث للمجموعات العرقية في آسيا الوسطى وقازاقستان : ٨٣ .

٢٠- المصدر نفسه : ٩٦.

المصادر

١- بافل فاسيلفج لونين،من تاريخ الإستشراق االروسي والتنقيب عن الآثار في تركستان (١٨٩٥م-١٩١٧م)، طشقند ،نادي هواة التنقيب عن الآثار في تركستان،١٩٥٨م .

٢- زوفاروف ك.أ الأنسكلوبيديا السوفيتية الأوزبكية، أوزبكستان السوفييتية الاشتراكية ، طشقند،١٩٨١م .

٣- غفوروف،الأكاديمي فاسيلي فاسيلفج بارتولد.المؤلفات، ج٦. موسكو: دار العلم، ١٩٦٦م .

٤- غفوروف،الأكاديمي فاسيلي فاسيلفج بارتولد.المؤلفات،ج٩. موسكو: دار العلم ، ١٩٧٧م .

٥- فاسيلي فلاديميروفيتش بارتولد، لمحة شخصية،موسكو، مجلة أغانيوك،العدد (٤٠)، ١٩٢٧م .

٦- فاسيلي تشيشكوف ، التطور الحديث للمجموعات العرقية في آسيا الوسطى وكازاخستان ، موسكو، أكاديمية العلوم الروسية ، ١٩٩٢م .

٧- فاسيلي فلاديميروفيتش بارتولد،تاريخ الحياة الثقافية في تركستان،موسكو،دار العلم ،١٩٦٤م .

٨- كراتشكوفسكي ي.يو، ذكرى الأكاديمي ف.ر. روزين،موسكو/ لييننغراد،دار العلم، ١٩٤٧م .

٩- كراتشكوفسكي، مقالة في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو، لييننغراد: ١٩٥٠م .

١٠- كراتشكوفسكي ي.يو، " في ذكرى فاسيلي فاسيلفج بارتولد "،الصحيفة الحمراء، لييننغراد، العدد ١٩٧ ١٩٣٠/٨/٢١م .

١١- كراتشوفسكي ي.يو،مقالة في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو، لييننغراد: ١٩٥٠م .

١٢- كوشاكيفيتش، "معلومات عن منطقة حجينت"، مذكرات تاريخ الجمعية الجغرافية الروسية، الجزء ٤، سانت بيتربورغ ،١٩٧١م.

١٣- كارميشيف ب.خ ، مقالات في التاريخ العرقي للمناطق الجنوبية من طاجيكستان وأوزبكستان ، موسكو، دار العلم ،١٩٧٦م .

١٤- أ.د. محمد البخاري: آفاق التعاون العربي الأوزبكستاني.الرياض:مجلة "تجارة الرياض"، العدد ٢٠٠٢/٤٨٢ .

١٥- أ.د. محمد البخاري، د. عبد الله عبد الستاروف ، إحياء تراث أوزبكستان بين الأمس واليوم. الرياض: مجلة "الفيصل"، العدد ٢٠٠٣/٣١٨ .

١٦- أ.د. محمد البخاري:. عرب آسيا المركزية:آثار وملامح. دمشق:مجلة "المعرفة"، العدد ٢٠٠٢/٤٦٠ .

١٧- أ.د. محمد البخاري، مليكة أنور ناصيروفا: علوم اللغة العربية ومخطوطاتها في أوزبكستان. دمشق: مجلة "المعرفة"، العدد ٢٠٠٢/٤٦٨ .

١٨- مكتبة معهد أبي ريحان البيروني للاستشراق التابع لمجمع العلوم الأوزبكستاني ، الأصول، طشقند ، ١٩٦٧م .